شريعة المصريين القدماء وشريعة الإسلام

النبي إدريس المثلث بالعظمة

قارن د. وسيم السيسي الباحث في المصريات بين شريعة المصريين القدماء والشرائع السماوية فقال : " الله لم يترك أمَّة بلا رُسل : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل :٣٦] .

وقد ذكر منهم القرآن الكريم نبي الله إدريس : ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ [مريم : ٥٦] .

وكان من ألقابه هرمس كما يذكر القفطي " إدريس النبي ﷺ ولد بمصر وسموه هرمس ، وكان المصريون يلقِّبونه «عا.. عا.. عا.. وِرَّ» أي مثلث العظمة .

وقد عُثِرَ على بعض الكتابات الهرمسيَّة، تقول عنها دائرة معارف الدين إنها أثَّرت في العقائد اليهوديَّة، واللاهوت المسيحي ، كما تذكر لنا دائرة المعارف البريطانيَّة أنَّ هذه الكتابات الهرمسيَّة دُرست جيداً بواسطة العرب وأثَّرت فيهم .

عرف القدماء البعث بعد الموت، نجد كلمة موت مصريَّة، منيَّة.. مصريَّة، نشرو " النشور" مصريَّة، أخرت " آخرة " مصريَّة، قر " المستقر " مصريَّة في القرآن ﴿وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ [غافر : ٣٩] .

نجد في كتاب " الخروج إلى النهار " المسمى خطأ " كتاب الموتى " في فصل إنكار الخطايا، تدخل نفس المتوفى إلى قاعة الحساب " كلمة مصريَّة " يسوقها أحد الملائكة، وفى القرآن الكريم ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق :٢١] ، ثم يقول المُتوفَّى: لم أرتكب إثماً، وفى القرآن: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ﴾ [الأعراف : ٣٣] .

وفى بردِيَّة آنى يقول المُتوفَّى: لم أرتكب الفحشاء ، وفى القرآن ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ﴾ [الأعراف : ٣٣] .

كما كان المصري القديم يقول: لم أقتلْ، لم أسرقْ، لم أسلبْ، لم أسرقْ بالإكراه، لم أرتكبْ الزنا، لم أشته زوجة قريب أو صديق، لم أرتكبْ الفاحشة في حرم الإله، وجاء في القرآن: ﴿وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة : ١٨٧] ، وكان المصريُّ أو المصريَّة يقول في محاكمة الروح: لم أكن متنصتاً أو متجسساً، وفى القرآن الكريم: ﴿وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾ [الحجرات : ١٢] وكان يقول: لم أنطق بالأكاذيب، ولم أكن شاهد زور، ولم أغْتَبْ " الغِيبة " أحداً ، ولم أكن نمَّاماً ، ولم أسخر من أحد، ولم أشتم، ولم أكن عالي الصوت، ولم أظلم.. بل عشت للعدل، وبالعدل عشت، والقرآن الكريم يقول :﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل : ٩٠] كما كان المصري القديم يقول : لم أُلْحِق أذى بمخلوق، والقرآن: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب : ٥٨] إلى آخر هذا القانون

الأخلاقي الرائع، والذي يقول عنه برستد " إنه أسمى بكثير من الوصايا العشر" .

فإذا ذهبنا لسِفْر الأمثال الذي كتبه سليمان الحكيم بعد إمنوبى الحكيم المصري بآلاف السنين نجد التطابق العجيب الذي يؤكد أن المصدر الإلهي واحد منذ آلاف السنين، هوذا إمنوبى يقول: أَمِلْ أذنيك لتسمعَ أقوالي، وأعْكفْ قلبَكَ على فهمها، وسليمان الحكيم بعد آلاف السنين يقول: أَمِلْ أذنيك واسمعْ كلامَ الحكماء، ووجِّهْ قلبَكَ لمعرفتها !

ويقول أمنوبى: لا تتعِبْ نفسك في طلب المزيد، مادمتَ حصلت على حاجتك، فالمال المسروق لا يمكث معك بل تصبح له أجنحة ويطير كإوزة إلى السماء، ويقول سليمان الحكيم: لا تتعبْ نفسك حتى تصير غنيّاً، فالمال يصنع لنفسه أجنحة كالنسر ويطير إلى السماء !

ويكتب لنا برستد عشرات الصفحات المقارنة بين أمنوبى وسفر الأمثال، وبين أناشيد أخناتون ومزامير داوود النبي ."

نظام الحكم عند المصريين القدماء

إن دين الله تعالى ليس مجموعة من الشعائر التي تؤدى في بيوت الله ولا علاقة لها بحياة الناس ومعاشهم ، هذه فكرة قاصرة لدين الله فدين الله الذي شرع للناس شامل لكل مناحي الحياة ، فكل حياة المرء لابد أن تكون لله تعالى

﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢]

وكان النبي ﷺ كثيراً ما يدعو الله تعالى بهذا الدعاء : " اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي

وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي واجعل الحياة زيادة لي في كل خير واجعل الموت راحة لي من كل شر " [رواه مسلم]

ونظام الحكم منصوص عليه في الشرائع السماوية ، وأمر الله تعالى الناس أن يحتكموا إليه .

يقول تعلى ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤]

فمن كتم حكم الله الذي أنزله في كتابه وجعله حكماً بين عباده ، فأخفاه وحكم بغيره "فأولئك هم الكافرون " .

وقد كان نظام الحكم عند قدماء المصريين يسير وفق شرع الله ولا يخرج عنه

يقول د. سليم حسن : " لم تكن الحكومة المصرية في نظر الشعب المصري نظاماً اخترعه الإنسان أو أنه جاء نتيجة تطور سياسي – كما زعم المؤرخون العلمانيون – بل كان هبة الله لشعبه أسس عند خلق الدنيا"(١)

ولما العجب وقد كان إدريس عليه السلام هو الذي الشعب المصري في بداية الخليقة ، فإدريس قد جمع بين النبوة والحكمة والملك .

يقول الإمام المناوي " قال ابن فضل اللّه: كان إدريس يسمى هرمس المثلث كان نبياً وحكيماً وملكاً ووزيراً " (٢)

وذكر ابن إسحاق أن إدريس قد أدرك من حياة آدم عليه السلام ٣٠٨ سنوات لأن آدم عمَّر طويلاً زهاء ١٠٠٠ ألف سنة .

---

(١) د. سليم حسن " تاريخ الضارة المصرية ، العصر الفرعوني " ج١ ص ٢٣٨ مرجع سابق
(٢) الإمام المناوي " فيض القدير شرح الجامع الصغير " الجزء الثالث تابع حرف الهمزة

ولا يعلم أحد إلا الله كم عاش إدريس بعد آدم ، وكم سنة حكم فيها المصريين ، ولكن الذي أكده المفسرون والمؤرخون إن إدريس عاش طويلاً وكان كداود ملكاً نبياً .

حاكم مصر زمن يوسف عليه السلام

كذلك كان نبي الله يوسف حاكماً في مصر

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فلما كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِينٌ * قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ * وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاء نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : ٥٤ –٥٦]

فهل كان ملك مصر زمن يوسف عليه السلام ملكاً طاغياً متألهاً كفرعون موسى ؟

والإجابة بالنفي لأنه لو كان طاغية لما أعاد التحقيق في قضية يوسف التي بسببها دخل السجن ظلماً ، ولما أبرأ ساحته رغم أن يوسف ما كان إلا عبداً أجنبيّاً اشتراه العزيز بثمن بخس ، وخصمه هو عزيز مصر ، ولم يكتف الملك بإعلان براءة يوسف، وإخراجه من السجن بل إنه استخلصه لنفسه ومكَّن له ، وجعله على خزائن الأرض ، بل وأشركه معه في حكم مصر .

يقول د. سليم حسن : " لم يكن الفرعون مجرد حاكم مستبد يسيطر على قوم على الرغم من إرادتهم بل كان يحكم بحقه الإلهي بكل معاني الكلمة"(١)

وكان الحكام في مصر القديمة ليس مطلق اليد بل هو مقيد بشريعة الله ، لا يخرج عليها ، وإلا خرج الناس عليه .

---

(١) د. سليم حسن " تاريخ الضارة المصرية ، العصر الفرعوني " ج١ ص ٢٣٨ مرجع سابق

قانون ماعت وشريعة العدل الإلهي

ودونك دستور الحكم في مصر : { إن المصري القديم اعتقد أن أوَّل من حكم على الأرض والعالم بأجمعه هو " رع " إله الشمس ، وقد وضع هذا الإله قانوناً يسمى " ماعت " ومعناه الصدق والعدل والحق والعدالة الاجتماعية والحكم الصالح ، ولما رفع " رع " نفسه إلى السماء حكم ابنه (١) على الأرض ولقبه " بابن رع " (خليفته) وهو الملك ، وقد كان على كل ملك يتبوأ عرش مصر العظيمة منذ الأسرة الرابعة (أسرة بناء الأهرام) أن يسير في حكمه تبعاً لقانون " ماعت " فإذا ما حاد عنه قيد أنمله فلشعبه ألا يعتبره ابناً " لرع " ولا يحكم البلاد .

لذلك نرى أن البلاد سارت تحكم بقانون " ماعت " مدة طويلة وهي تنعم بالرخاء طوال عهد الدولة القديمة حتى إذا ما انتصف حكم الأسرة السادسة أخذ الملوك يحيدون عن الحكم بقانون " ماعت " حتى انهارت البلاد وهوت إلى مزالق الذلة ولذا قامت في مصر ثورة اجتماعية قلبت جميع الأوضاع ونادت بالإصلاح الشامل وتقويم فساد المجتمع من الانحطاط . } (٢)

لكن ما هو قانون " ماعت " هذا الذي أمر الله تعالى به الإنسان خليفته في الأرض أن يطبقه ، وعلى أساسه يوم القيامة سيحاسبه .

يقول د. سليم حسن : { كلمة " ماعت " تعني في متون كثيرة العدالة ولكنها فكرة تشترك في أسباب شرائع الكون ، كما يشترك فيها علم الأخلاق ، فهي العدالة بوصفها نظام إلهي للمجتمع ، ولكنها كذلك

---

(١) " ابنه " هنا ليس بالمعنى الحقيقي إنما معناها خليفته مصداقاً لقوله تعالى : { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً } (البقرة : ٣٠)

(٢) محمد صابر " مصر تحت ظلال الفراعنة " مكتبة الأنجلو المصرية ص ١١١

نظام إلهي للطبيعة كما وضعت عند بدء الخليقة .. وكلمة " ماعت " تحوي في طياتها معاني دقيقة خلقية واجتماعية فهي النظام الذي يسير على هديه الفرعون في حُكم شعبه كما كان يفعل " رع " ومن ثَمَّ قَبِل الشعب المصري الحكم الملكي لا بوصفه نظام حكم أفضل من غيره بل لأنه من وضع الإله الخالق للعالم وعلى ذلك خضعوا له لأنه عادل ولم يكن للفرعون الحق في تغييره فإذا حاد عنه فإنه يعد خارجاً على نظام خالق الخلْق ، وقد استمرت ملوك مصر من أول مينا حتى نهاية الأسرة السادسة يسيرون حسب تعاليم " ماعت " ولما حادوا عن تعاليمها خرج عليهم الشعب ومن ثَمَّ كانت أول ثورة اجتماعية (أو شيوعية حسب رأي د. سيد كريم صديق د. سليم حسن) في تاريخ البشرية استمرت أكثر من قرن من الزمان إلى أن عاد قانون " ماعت " أي العدالة المطلقة على يد ملوك الدولة والوسطى . " (١)

وكانت فترة فرعون حاكم مصر زمن سيدنا موسى من تلك الفترات التي خرج فيها فرعون على توحيد الله واتباع قانون " ماعت " ولقد عاقبه الله تعالى هو ومن أطاعوه بأن أغرقهم أجمعين ؛ ليكونوا عبرة لكل من تسول لهم نفسه الخروج عن قانون الله قانون " ماعت " .

﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ {٥٤} فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ {٥٥} فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلآخِرِينَ ﴾

[الزخرف : ٥٤ – ٥٦]

إن قانون " ماعت " هو شريعة الله التي أمر الله الإنسان بتطبيقها ، حتى يكون خليفة في الأرض ، ويحافظ على توازن الكون .

---

(١) د. سليم حسن " تاريخ الضارة المصرية ، العصر الفرعوني " ج١ ص ٢٣٩ مرجع سابق

يقول علماء المصريات : { عندما خلق الخالق الكون ، شكَّل دنيا ثابتة في مظهرها ووظائفها ، وأن كل شيء بداخل هذا العالم مطابقة للخطة الإلهية الموضوعة ، ولا حاجة إلى إدخال أي تحسين في أية مرحلة تالية ، وقد أطلق المصريون القدماء كلمة " ماعت " على توازن العالم كله ، وتعايش جميع عناصره في انسجام ، وعلى تماسك وحداته الذي لا غنى عنه للمحافظة على الأجسام المخلوقة .

كان هذا التفاعل بين القوى هو الذي ضمن نظام الكون بدءاً من مكوناته الأساسية : كالحركات السماوية ،وانتظام الظواهر الموسمية ،وتعاقب الزمن، وشروق شمس جديدة في كل صباح .

إلى أقل هذه الظواهر والمجتمع الإنساني نفسه ، والعلاقات الودية بين الأحياء ، والمراعاة الدينية لكل الطرق التي سنَّها الإله للأشياء ، واحترامها، تلك القواعد التي اشْتُقَّتْ منها عدالة العلاقات الاجتماعية والحياة الخلقية . وهكذا كانت "ماعت" هي كُلاًّ من النظام الكوني ، والأخلاقي اللذين يعملان معاً في جميع الظروف تبعاً لوجهة نظر الإنسان عن نظام الكون"[1]

وعلى أساس قانون " ماعت " سوف يحاسب الإنسان يوم القيامة فيوضع القانون " ماعت " في كفة ، وقلب الإنسان في كفة ، فقانون " ماعت " يكون : " صنجة (الثِّقْل) توضع في الميزان لوزن قلب الميِّت عند المحاكمة لمعرفة إذا كان " ماعتياً " أو بمعنى آخر يطابق ماعت أي إنسان خيِّر أم لا .. ولهذه الأسباب اعتبرت " ماعت " تجسيداً للحقيقة والعدالة . " [2]

([1]) جورج بوزنر ، سيرج سونرون ، جان يويوت ، أ.أ.س إدواردز ، ف.ل. ليونيه ، جان دوريس " معجم الحضارة المصرية القديمة " مرجع سابق ص ٢٩٧

([2]) نفسه ص ٢٩٧

وبناءً على ما ذكره المصريون القدماء عن " ماعت " يمكن أن نستنتج الآتي :

١- خلق الله تعالى الكون بكل عناصره بدقة متناهية .

٢- كل عناصر الكون – بما فيها الإنسان – متوازنة في خصائصها ، ومتوازنة مع غيرها من بقية العناصر .

٣- إن أي خروج على نظام الكون يعد إفساداً له .

٤- أنزل الله تعالى قانون " ماعت " ليطبقه الإنسان في حياته ، فتصلح حياته وحياة سائر المخلوقات .

٥- يوم القيامة سيكون حساب الإنسان وفق قانون " ماعت " .

٦- الإنسان الخيِّر هو من جاء بقلب سليم مما يخالف قانون "ماعت "

٧- الإنسان الشرير هو من كذَّب بهذا القانون واتبع هواه .

ولو قارنا قانون " ماعت " بشريعة الله كما تبدَّت في أروع صورها في الديانة الإسلامية آخر الرسالات السماوية لوجدنا أن الإسلام لا يناقض شيئاً من قانون " ماعت " بل جاء بتمام هذا القانون وكماله .

لقد خلق الله تعالى الكون بكل عناصره متوازنا ومنسجما بعضه مع بعض .

﴿لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس : ٤٠]

﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ [الحجر : ١٩ – ٢٠]

تأمل قوله تعالى وأنبتنا فيها من كل شيء موزون .

كذلك خلق الله تعالى الإنسان متوازناً : روحاً ، وعقلاً ، وقلباً ، وجسداً .

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين : ٤]

﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم : ٣٠]

فالفطرة إذن هي التوازن بين عناصر الإنسان المختلفة في أمثل صورة لها توازن بين والجسد والروح أو بين المادية والرهبنة ، وتوازن بين العقل والقلب أو بين العلمانية والصوفية .

وكما أن الله تعالى خلق الإنسان متوازناً ، والكون متوازناً فإن دينه الذي ارتضاه للناس متوازن كذلك ويعمل على حفظ التوازن للإنسان والكون ، فكيف ذلك ؟

ميزان العدل في القرآن الكريم

أرسل الله تعالى الأنبياء والرسل بالكتب المقدسة تلك الكتب المتوازنة مع كيان الإنسان كله والتي تجعل نظرته لحقوق الله وحقوق خلقه متوازنة وبهذا يقام ميزان العدل .

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد : ٢٥]

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ [الشورى : ١٧]

وحذر الله تعالى الإنسان من اختلال الميزان ، والميل لجانب على حساب الآخر كالميل للدنيا على حساب الآخرة أو الميل للجسد على حساب الروح .

﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾[الرحمن : ١- ٩]

وانظر معي هذه الآيات العجيبة التي جمع الله تعالى فيها بين تعليم القرآن ، وخلق الإنسان ، وخلق الكون ، وأمره تعالى للإنسان بالتزام الميزان في كل ذلك وتحذيره تعالى من عدم مراعاة الميزان في فهم القرآن والإنسان والكون ، وأكد هذا بالتقرير ﴿ووضع الميزان﴾ والتعليل ﴿ألا تطغوا في الميزان ﴾ والأمر ﴿ وأقيموا الوزن بالقسط﴾ ثم بالنهي ﴿لا تخسروا الميزان﴾ أهناك تأكيد أكثر من هذا على وجوب اتخاذ التوازن منهج حياة ودستوراً شاملاً لفهم الدين والدنيا جميعاً ؟!

ثم انظر ثانية إلى قوله تعالى " وأقيموا الوزن بالقسط " والقسط هو العدل، لكن ما هو العدل ؟

للعدل معان كثيرة منها " العدل: ضِدُّ الجور ، وعدّل الميزان : سوّاه ، العَدْل هو الذي لا يَمِيلُ به الهوى فيَجورَ في الحكم ، وقيل : العَدْل تَقويمُك الشيءَ بالشيءِ من غير جنسه حتى تجعله له مِثْلاً ، ومن أسماء الله تعالى : الحكم العدل "(١)

ومن هذه التعريفات للعدل يتبين لنا أن ميزان العدل يجب أن يكون .

أولاً : منزها عن الهوى .

ثانياً : لا يجور في الحكم .

ثالثاً : أن يقَوِّم (بتشديد الواو وكسرها) ما ليس من جنسه .

وبناء على هذا التعريف إذا أردنا ميزان عدل للإنسان فمن الذي يضعه ؟

---

(١) انظر مادة " عَدَلَ " في لسان العرب .

هل يضعه الإنسان نفسه ؟!

بالطبع لا .. لأن الإنسان غير مبرأ من الهوى .

﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [يوسف : ٥٣]

كما أن الإنسان من نفس جنس المُقَوَّم (بتشديد الواو وفتحها) فكيف يكون هو الخَصم والحكم في آن واحد ؟!

والعدل يقضي أن خالق الإنسان هو الذي يضع له ميزانه وهو الذي يحكم به ولاسيما أن هذا الخالق – سبحانه– منزَّه عن الهوى ، كما أن من أسمائه الحكم العدل ، والمُقسِط ، والحق .

ولقد خلق تعالى السموات والأرض بميزان العدل .

﴿وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن : ٧]

وهو تعالى الذي سوف يحاسب الناس يوم القيامة بمقتضى هذا الميزان العادل الذي لا ظلم فيه .

﴿ونَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء : ٤٧]

فترى ماذا يكون الميزان العدل هذا ؟

إنه كتاب الله : القرآن الكريم ﴿الرحمن علم القرآن﴾

والله تعالى يأمر نبيه الكريم ، وكل حاكم على محكومين أن يحكم بينهم بكتاب الله العزيز الحكيم .

وألا يتبع أهواء وميول البشر باسم الديمقراطية فلا اجتهاد مع شرع إنما الاجتهاد فيما لا نص فيه ولا حكم قطعي الثبوت والدلالة . (١)

---

(١) ولقد ضل أقوام حكَّموا عقولهم وأهواءهم وطرحوا دين الله ؛ فأباحوا الخمر والميسر ، والزواج المثلي (زواج الرجل بالرجل ، والمرأة بالمرأة) ، وأباحوا الزنا والسفور والفجور والشذوذ ... كل هذا باسم الديمقراطية وأن الناس صدقت على ذلك وأقرته !!.

﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ﴾ [المائدة : ٤٩]

﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام : ٥٧]

وأن هذا الأمر ليس جديداً على الإنسانية فمنذ أن أرسل الله تعالى رسله للناس أنزل معهم بيان الحق وكتاب الشرع ، وميزان العدل ؛ ليقضوا بين الناس بما علمهم الله ولا يتبعوا أهواءهم .

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد : ٢٥]

ولم يترك الله تعالى الأمم تتخبط خبط عشواء تحتكم لعقلها القاصر أو أهوائها الجامحة إنما أرسل كل أمة رسولاً ليقضي بينهم بالحق والعدل .

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاء رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُون﴾ [يونس : ٤٧]

كما أمرنا الله تعالى أن يكون ميزان العدل الإلهي هو القانون الذي نحتكم إليه .

﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الشعراء : ١٨٢]

كما أمر الله تعالى أن يكون ميزان العدل مطلقا لا يشمل الأقرباء دون الغرباء ، ولا الأغنياء دون الفقراء ، ولا الضعفاء دون الشرفاء ، إنما الكل متساوون أمام ميزان العدل الإلهي سواء بسواء .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ

الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾[النساء:١٣٥]

وكان النبي مثال العدل بما فهم عن الله تعالى .

﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾

[المائدة: ٤٢]

وأخبر النبي عليه الصلاة والسلام أن اختلال ميزان العدل كان السبب في هلاك الأمم .

"إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد وأيْمُ الله لَوْ أنّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا" [متفق عليه]

كما أمر الله تعالى بالعدل بين طوائف المؤمنين ، وبقتال الطائفة الباغية حتى ترجع لأمر الله فإن رجعت يُصلح بين الطائفتين بميزان العدل الإلهي.

﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾

[الحجرات : ٩]

وتأمل معي ختام الآية والتأكيد الشديد على إقامة العدل بين المؤمنين.

ومن مظاهر هذا العدل المطلق أنه شمل الأعداء . أيضا أ هناك أعظم من هذا ؟

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ (أي لا يدفعكم كره) قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ [المائدة : ٨]

بل ميزان العدل الإلهي يتسع ليشمل كل الناس مسلمين وغير مسلمين.

﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّـهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّـهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾

[الممتحنة : ٨]

أ ليس هذا العدل هو عين الرحمة وأن من أنزله هو الرحمن الرحيم ؟

أ عرفت الآن لم بدأ الله تعالى الآيات بل السورة بل جميع سور القرآن (١) باسم الله تعالى " الرحمن " ذلك الاسم العظيم الذي لا يشاركه فيه أحد والذي من آثار رحمته أن أنزل القرآن .

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَارًا﴾ [الإسراء : ٨٢]

هذا القرآن العظيم الذي هو شفاء لأمراض القلوب ، وأوهام العقول ، وشهوات النفوس .. ورحمة للمؤمنين لأنه .

﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف : ١٥٧]

ومن آثار رحمته تعالى خلق الإنسان في أحسن تقويم ﴿فِطْرَةَ اللَّـهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم : ٣٠] ، وتعليمه البيان (أي تعليمه من العلوم والمعارف ما يعينه على فهم القرآن ومعرفة أحكامه) ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾

[القيامة:١٧ – ١٩]

ومن آثار نعمة الله تعالى على الإنسان أن خلق له هذا الكون .

---

(١) ما عدا سورة التوبة لأنها نزلت في المنافقين وهم لا يستحقون رحمة الله تعالى{ ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون }

﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن : ٥- ٧]

وجعل فيه من كل شيء موزون بميزان العدل الإلهي .

﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ [الحجر : ١٩- ٢٠]

وعلى هذا تحدد الآيات – أوائل سورة الرحمن – أولويات الإنسان :

فأولا : وقبل كل شيء أن يعرف خالقه " الرحمن " ثم يتبع أوامره " القرآن " ليفهم نفسه ويفهم الكون .

وأن كلاً من القرآن ، والإنسان ، والكون يتسمون جميعاً بميزان العدل ولا عجب فجميعهم صادرون عن الرحمن : فالقرآن كلامه ، والإنسان خليفته ، والكون خلقه. (١)

والآن بعد بيان مفهوم العدل في الشريعة الإسلامية برجاء العودة لقراءة قانون " ماعت " مرة أخرى والبحث فيه عما يتناقض مع شريعة الإسلام .

والذي يؤكد أن حكام مصر لم يكونوا كلهم طغاة – كما يظن الكثيرون – إنما كانوا ملتزمين بقانون " ماعت " تلك الأمثال والحكم التي جاءت على لسانهم ، أو التي وجهها الكهان لهم وكلها تهدف إلى أن العدل هو أساس الملك في الدنيا ، وشرط دخول الجنة في الآخرة .

يقول الملك " ختي " لابنه الملك " مريكارع " (الأسرة الثامنة عشر): " هدئ من روع الباكي ، ولا تظلم الأرملة ، ولا تحرم إنساناً من ثروة

(١) لمزيد من التفصيل حول مفهوم التوازن في الإنسان والكون وشريعة الإسلام راجع كتاب " ميزان الحق بين العلمانية اللادينية والسلفية اللأصولية " للمؤلف دار زهور المعرفة والبركة .

أبيه ، ولا تطرد موظفاً من عمله ، وكن على حذر ممن ينتقم مما وقع عليه من ظلم لا تقتل فإن ذلك لم يكون ذا فائدة لك ، لا تقتل رجلاً تعرف مزاياه رجلاً كنت تتلو معه الكتب ، لا تميز بين ابن شخص ذي حيثية على شخص فقير بل قرِّب إليك إنساناً بسبب عمل يده " [١]

إن الدارس لحضارة المصرية القديمة ليأخذه العجب من أنها بدأت تامة كاملة فالدولة القديمة هي أول من عرفت الزراعة ، وقسمت فصول السنة ، واستصلحت الأراضي ، وسجلوا مقياس النيل ، وزرعوا الشعير والقمح ، والبصل ، والثوم ، والبامية ، واللوبيا والعدس ، والخص ،والبطيخ ، والعنب ... " وكان الفرعون هو مصدر القوانين يحكم بمراسيم كأنها قرارات أوحي إليه بها . " [٢]

يرجع ذلك إلى تطبيق شريعة الله التي جاء بها أنبياء الله تعالى والتي توحَّد الناس حولها فكانت المنجزات الحضارية المدهشة .

***

(٢) د. أحمد فخري " تاريخ الحضارة المصرية " م١ ص ٤٤٢.
(١) أحمد حسين " موسوعة تاريخ مصر " ج١ص٦٠ دار الشعب